

المحاضرة الثالثة

نظريات الرواية

اولا : نظرية "هيجل"

نتوقف مع نظرية "هيجل" لفهم ابعادها وأثرها وكذلك محدوديتها في تحليل نشأة الرواية و ايضاح ماهيتها كجنس أدبي حديث.

كيف فسر "هيجل" نشأة الرواية؟

يعد الفيلسوف الألماني "هيجل" أول من قدم نظرية للرواية في الغرب من خلال رؤية فلسفية جمالية مثالية مطلقة.

يذهب "هيجل" الى وجود قرابة كبيرة بين الرواية والملحمة، الا أن الفن الملحمي باعتباره شعرا ازدهر ابان الفترة اليونانية و الرومانية، وهو يعبر عن تلاحم الذات و الموضوع في اطار انسجام متكامل و متناغم يعبر عن شعرية القلب .

اما الرواية فهي الفن الذي يتخذ السرد النثري وسيلة للتعبير عن انفصال الذات والواقع ، أو تشخيص الفجوة الموجودة بين الأنا و العالم، وهنا يؤكد تناثر العلاقات الانسانية في المجتمع الحديث ويجسد السقوط والقطيعة الموجودة بين الانسان و الواقع وتشخيص الوحدة المفقودة بين الذات والموضوع و نشدان التكامل المأمول بينهما ، و السعادة المطلقة المعهودة في الملحمة اليونانية والرومانية.

وقد أقر "هيجل" بأن الرواية ملحمة بورجوازية أو ملحمة بدون آلهة أفرزتها تناقضات المجتمع الرأسمالي . ويبدو من خلال ما كتبه هيجل أنه يفضل الملحمة على الرواية والشعر على النثر والقلب على العقل .

يربط "هيجل" بين نشأة الرواية كجنس أدبي جديد بالتحول التاريخي الذي حصل في سياق مسيرة الوعي الأوروبي وقد خص تاريخ أوروبا بالبحث لأنه ينسجم مع تصوره القائم على المركزية الأوروبية التي تنظر الى تواريخ غيرها من الشعوب كهوامش فقط .

ومن خلال تحليله لسياق تطور الوعي يضع "هيجل" الرواية في مقابل الملحمة جاعلا من الملحمة الصورة التعبيرية الملائمة لحالة الوعي في المجتمع القديم في مقابل الرواية بوصفها الصورة التعبيرية الملائمة لحالة الوعي في المجتمع الجديد

فما الفارق بين حالتي الوعي وما الداعي الى استحداث فن الرواية كبديل لفن الملحمة؟

لندرك الفارق لابد من فهم معنى صيرورة وتطور الوعي عند "هيجل" وضبط مسار اتجاهه المستقبلي .

يقول: ان الفكرة الوحيدة التي تجلبها الفلسفة معها وهي تتأمل التاريخ هي الفكرة التي تقول "ان العقل يسيطر على العالم ، وبالتالي فان تاريخ العالم يتمثل أمامنا بوصفه مسارا عقليا "

وبما أن الوجود في كليته يخضع للتطور ، وبما أن العقل يحاith حركة تطور الوجود ، فإن الوجود الانساني وكل منتجاته ومن ضمنها المنتج الفني يخضع هو كذلك للتطور و الصيرورة و القانون التطوري الذي يحكم الوجود التاريخي الانساني و يحكم كذلك نتاجاته .

فما معنى هذا القانون ؟

ان التاريخ الانساني يتطور من حالة اللاوعي الى حالة الوعي و منه الى درجة أرقى هي درجة الوعي و المنطق وكل لحظة تطور أرقى من سابقتها ،لذا فأنماط اللاوعي و منتجاته تخلي مكانها لأنماط الوعي و منتجاته.

وبما أن التاريخ ينتقل على مراحل أي من اللاوعي الى الوعي ومن الوعي الى مزيد من الوعي الى أن يعي العقل ذاته فان من العادي جدا أن تنتقل البشرية من الشعر الى النثر و من الطبيعي وفقا لنظرية "هيجل" أن يظهر الشعر قبل النثر فهو أقل وعيا منه بما لا يقاس لأن في النثر نجد الفكر المركز والعميق وهذا مالا نجده في الشعر،لذا كانت الملحمة- بما أنها سرد شعريي - الشكل التعبيري المناسب لدرجة تطور الوعي في المجتمع القديم.

ولما انتقل الانسان الى نمط المجتمع الحديث كان لا بد من انتقال السرد من نمط التعبير الملحمي الى نمط التعبير الروائي. ففي المجتمع القديم كان الأبطال الخارقين والآلهة من الكائنات الرئيسية التي يتمحور حولها فعل السرد وقد كان الشعر الملحمي - كما يقول "هيجل" - هو المهياً لتمثيل هذه الشخصيات الكاملة .

ان صورة العالم في المجتمع الحديث لم تعد صورة عالم مملوءة بالأبطال و الآلهة ولم تعد العلاقات الناطمة للعالم مثقلة بالأرواح والسحر ،بل هو عالم منتظم وفق قوانين معقولة ،لذا كان لابد من تغيير الشكل التعبيري وكذا مضامينه المعرفية وقد احتاج ذلك - حسب "هيجل" الى زمن طويل لأن التحول النوعي في الشكل التعبيري ومضمونه يستلزم تراكمات كمية أولا فالعقل لا يقفز قفزا لتتم القفزة النوعية فبين الملحمة والرواية مدة زمنية طويلة جدا تغيرت نظرة العقل الى العالم اثناء ذلك تدريجيا و صارت نظرة اكثر عقلانية.

ان الملحمة هي ابنة عقل يتصور العالم مليئا بالأرواح و الآلهة و السحر ولكن هذا لا يعني ان الملحمة لم تتحدث عن افعال شخصيات واقعية بل يعني ان هذا الواقع كان يعمل ضمن تصور عقلي في فهم العالم افرزته تلك المرحلة من التطور.

فالمسالة ليست مسالة واقعية او خيالية بل مسالة صورة العالم في العقل فهم كانوا يعتقدون ان الآلهة تتحكم في كل شيء في حياتهم.

لذا فان الملحمة كانت تسرد شعرا لان الشعر من منظور "هيجل" هو خطاب الكائن البشري الذي لم يترق بعد الى الوعي ولذا ليس من الصدفة ان تكون الرواية بما هي خطاب نثري يتناول الواقع المعيش في واقعيته.